وحى الأربعين

تمر فى الثانى عشر من مارس الذكرى الأربعون لوفاة العقاد ، وله ديوان «وحى الأربعين» صدر وهو فى الأربعين ، نستلهم هذا الوحى ، حيث أثار فى حينه معارك سميت باسمه ، شارك فيها تلاميذ الرافعى - ظالمى أنفسهم وظالمى الفن - وكال لهم المريدون من أولياء العقاد الصاع صاعين ، ولعل «الأربعين» الآن لا تزال تثير معارك ، ترن أصداؤها ، ويسمع صليلها فى صفحات النفوس والأوراق ، ولايزال العقاد - بعد رحيله - يغنم معارك ، لأن فكره سرى ويسرى فى تجاليد هذه الأمة ، ما كانت لغتها العربية ودينها الإسلام .

يقترن التجديد فى الشعر والنقد باسم العقاد ، وتستمد النهضة الحديثة فى فروع المعرفة الإنسانية صلة وثيقة بصاحب «وحى الأربعين» ، يأخذ نقاد هذا الزمن ثقافتهم من العقاد ، تسرى مصطلحاته فى كلامهم ، وإن تنكروا لها ، وَهَبْ أننا نحذف صاحب الذكرى من تاريخ الشعر والنقد والفكر الإسلامى ، هل يكون لمثل هذا التاريخ اكتمال ، وهل يظل الوجه واحداً ؟ !!

إن تكريم العقاد والحفاوة به لا يعنيه الآن ، وربما كان لا يعنيه حال حياته - فقد لقى منهما الكثير - تكريم وحفاوة حيث تعرف مواطن التقدير ، وتوليه لمن هو أهل لها ، وهو فى الوقت ذاته علو عن سفساف الأمور ، وإكالة الحفاوة لمن لا يستحق غير الزراية والإهمال ، وكل ذلك جنف عن المقاييس الصحيحة وقد فشا ذلك بكثرة فى أيامنا تلك ؛ لأننا لا نكاد نجد إلا مسخًا فى السلائق ، وارتكاسًا فى الأذواق .

والعقاد - من شأنه - أن يثير هذه الأسلاخ التى تعزى إلى الآدمية ، ويطلعها على هوانها وصغارها ؛ لأن ذكره «عقوبة ومحنة» لما يعانونه من معاقرة الخذلان والشنآن ، لكنه - من جانب آخر - يثير أولى الأخلاق الرفيعة ، والهمم المشحوذة للجمال ، فتحتفى به فى سلوكها وعروجها إلى الخير ، وإن كان ما حولها يأسن

ركوداً وزرايةً ، بيـد أن هذا الفريق الكريم لا يملك من وسائل الإعـلان ما يملكه الفريق الأول من تسـخير الأبواق ، التي يرتع فـيها أحـلاس الزحام ، ممن يرضى غرورهـم ، ومصـالحة أنفـسهم التـوسُّط الشائع ، ويؤذيهم فى الصـميم الـتميـز والرفعـة، فيـصدفون عن مـخاطبـة المثل العليا ؛ لأنهم لايملكـون لها من ذوات أنفسهم مايتجاوز بهم هذه المفازة المضلة .

حارب العقاد فى حياته كل قيمة زائفة ، فلا يعنيه إذن من يزيفون ذكراه ؛ لأنه ينشـد - ولايزال - القيم الصـحيـحة ، حـيث هو نموذج لها ، وفكره يخـاطب الإنسان بعيداً عن عشاوة التقليـد ، والبهرج الزائف ، الذى تعيث فيه ديدان الحس الخادع ، والأرب المئـوف ، وهو عنوان صحـيح للإنسان الراقى المشـغول بالخـيال والجمال . لقد حـارب أصنام الألقاب العلمية والوظائف الرسميـة ، وأطلق عليها «رق القرن الـعشرين» ، وحـارب الاستـبداد والحكم المطلق ، ولبث فى الـسجن بضعة أشـهر لم يستخـذ ولم تخضد شوكـته ، بل خرج أقوى مـا كان من سجن «أكبر رأس فى الدولة يخـون الدستور» ، وخرج عن الوفـد أو خرج الوفد عنه - بعبارته هو - حـين كان يمثل أغلبيـة الدكتاتورية ، وكان العـقاد ثائراً ، ولكنه لم يكن وفديًا ولا غير وفدى ، وحارب الاستعمار والطغيان ، وهاجم أعداء الإسلام ممثلين فى المستشرقين ، متتبعا عـوراتهم «فيما يقال عن الإسلام» وأصلى الشيوعية ناراً حامية وتنبأ بسقـوطها وهى فى أوج ازدهارها - إن كان لها ازدهار - وحققت نبوءته الأيام ، وحارب هتلر والنازية وقد دوَّخ الأمم والممالك ، وقال فيما قال في مستـهل كتابه عنه : «فى هذا الكتاب ما أنا بقـاضٍ ولا يسرنى أن أكونه» ، وأنذره أعوان هتلر بـسوء المغبـة ، وسقط الطاغـية ، وانتصـر فكر العقـاد ، فكر الحرية والاستـقلال ، وحارب الجـمود باسم الدين ، وأصلى الإخوان المـسلمين ناراً من مارجه وحمـمه ، وأطلقوا عليه الرصاص فى داره - رأينا أثر الرصـاصة فى نافذة البيت - وكان مـبلغ قوله : الرأى بالرأى والجريمة بالعـقاب ، وارتأى أن اللوحة الفنية عنوان نهضة فى الأمة لا تقل - إن لم تزد - عن وثيقة الاستقلال ، وحارب الفوضى باسم الفن ، مناصراً للشعر الموزون المقفى ، مناوئًا «للموضات» الزائفة ، ولعل الأيام تشـهد الآن ثمـرة هذا الجموح ، فـأفلت الزمام وطـاش ، وفى كلام

العقاد وطبيعة العربية ما يعصم من الزلل والالتباس .

ومع هذه الحروب التى استغرقت منه السنوات . فإنه كان يعتقد أنها تمهيد للبناء أو هى البناء ذاته ، لأنه أخرج من الشعر عشرة دواوين ، - وهو عندنا الشاعر بالألف واللام ويمثل الشعر ملكته الأولى - وأصدر من النقد العشرات ، ومن الرواية والسيروالتراجم والعبقريات ، وبحوث الفلسفة والتاريخ والفكر ما يشهد بعبقريته ، وغدا موضع الدرس - إيجابًا وسلبًا - فى البحوث جامعية وغيرجامعية، وصورته فى الدرس نديد لصورته فى عالم الجمال ، حيث ألهم الشعراء والمحبين ؛ لأنه لم يعدم الصديق والناحر من الذين لا يزحفون على البطون ، فى أى زمن ، ولا يعنيهم أن يزحف الناس ، ولا يهز فى معتقدهم بقيم الحق والخير والجمال أن يزمر الزامرون لأنهم يعيشون فى استغناء ، لا تبلغ نعاله أصداءُ هؤلاء، الذين هم شهادة عوراء ، على أننا نحيا فى زمن فارغ إلاّ من الأصداء والأهواء.